الطفل في السجون

للأستاذ فتح الله محمد المرصفي
مفتش التعليم بمصلحة السجون

إن من المسائل الاجتماعية الخطيرة في مصر بل وفي غيرها من أمم العالم المتمدين مشكلة الأحداث اهمل وصغار المجرمين ولم أفتأ أعرض لبحثها وعلاجها كلما سنحت لي الفرصة في أي ناحية من نواحي الحياة المصرية يكون لها أثرها وصوتها المسموع عند رجالات مصر المفكرين والعاملين على الاصلاح وقادة الرأي العام وفضليات النساء اللواتي كلفن بالخدمة العامة وشؤون مصر الاجتماعية و إنه ليزيد في غبطتي و يضاعف رجائي أن تفسح لنا اليوم " مجلة الشؤون الاجتماعية" مكانا بين صفحاتها لنسمع صوت الطفل السجين ناحية من نواحي مؤاساة الطفولة المعذبة .

وفي يقيني أن في مقدمة العلل والأدواء الاجتماعية في المجتمع المصري الأسرة المصرية فإن إغفالها اليوم دون تشريع أمر سيكون له نتائجه السيئة وعامل قوي في انتشار الجريمة ومضاعفاتها وما ذلك إلا من فوضى الحرية التي ملكت مشاعر أفراد الأسرة كبيرها وصغيرها غنيها وفقيرها .

ومن القول المأثور أن ليست الهيئة الاجتماعية إلا اتساع دائرة الأسرة فاذا اخرج الانسان من أسرته فاسد الأخلاق دخل المدينة فاسد الأخلاق .

وليس بعزيز على المرأة المصرية بعدما أصبحت فيه من مكانة في المجتمع المصري و بفضل ما قامت به زعيمة الحركة النسوية ورئيسة الاتحاد النسوي صاحبة العصمة السيدة هدى هانم شعراوي وجاهدت في سبيله لخير المرأة المصرية أن تعمل لإسعاد الأسرة ورفع مستوى الحياة الاجتماعية ومن أولى باصلاح حياة الأسرة وشؤونها الاجتماعية وأبرع من المرأة، تلك التي قيل عنها بحق إن هزت المهد بيمينها فقد هزت العالم بيسارها .

و إني أهاب فيما ألمعت اليه من كلمات وجيزة ألا تتسع سطورها فالمح لما سجله التاريخ القديم والحديث واعترف به علماء الاجتماع وأقره القادة والمصلحون وما نصت عليه الشرائع والأديان المختلفة عامة من مكانة المرأة في جميع نواحي الحياة، التي إن صلحت صلح كل شيء وان أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق .

وائن جاز لنا أن نسجل ما توج به هذا العصر المجيد من احساس فياض غمر أفراد الشعب قاطبة و بخاصة الفقراء في شخص الجمعيات الخيرية والمنشآت الانسانية من تبرعات ملكية ومبرات

يقصر دونها الاحصاء فان مليكنا البار الصالح المحبوب "فاروق الأول" حفظه الله قد ضرب لنا المثل العليا فى كل مناسبة مما يكنه من عطف سام لخير الانسانية وفى مختلف نواحى الحياة الاجتماعية المصرية.

وقد سارع القوم والعاملون على الاصلاح لخير الانسانية وفى مقدمتهم المرأة المصرية فى شخص الاتحاد النسائى وما عداه من الجمعيات النسوية إلى إقامة المنشآت ومآوى الأطفال وتخفيف ويلات الفقراء مما سوف يكون له أبلغ الأثر فى حياة أفراد الشعب من المعوزين اليائسين وطبقات الأمة على السواء ومما قد يصيبها من شر عاجل أو آجل .

فها قد لقى اليوم الطفل الشريد وأخوه اليتيم وغيرهما من أطفال الشوارع والقطاء ومن اليهم من الأطفال الشواذ من الحماية والرعاية فى زمن اتجهت فيه أعمال البر وفى عصر توجهت اليه عاطفة الخير وفعل الانسانية الى الطفل الفقير وما أحوجه إلى إقامة المشروعات الخيرية والمؤسسات الانسانية .

إلا أنه جدير بنا أن نخص بالذكر فى هـذا المقام مئات الأطفال بل وعشرات الألوف ومن هم فى أعمارهم الغضة من نزلاء السجون أو من يزجون فيها سنويا بين عتاة المجرمين لالذنب جنوه سوى افتقارهم إلى عطف الافراد والهيئات العاملة من أبناء قومهم والمصلحين من قادة الرأى العام فتشملهم الرعاية ويحميهم القانون مما اقترفوه من إثم كان سببا فى الحكم عليهم وترديهم فى هوة الاجرام، فأطفالنا فى محاكمتهم ليسوا إلا كالبالغين من المجرمين وهم أشدما يكونون حاجة إلى إصلاح وتهذيب يسيء بهم إلى الحياة الشريفة وسوف يأتى اليوم القريب الذى ينال فيه هؤلاء الأطفال ما انيه أمثالهم من عطف وحنان أسوى بين جدران الاصلاحيات اليوم بما أدخل عليها من نظم رشيدة واتجاهات حديثة كان لها أثرها فى حياتهم مدة إقامتهم بتلك الدور التى أصبحت تسمى بحق معاهد الاصلاح والتهذيب .

إن ما أريد أن ألفت النظر إليه أن يقدر ذوو الرأى والعاملين على الاصلاح ما أصبحت عليه حالة الجريمة من الأحداث وخطرها علينا وتزايدها بيننا فى العشر السنوات الماضية كما ولست أريد أن آتى مفصلا على ما تدور حوله الأرقام والاحصاءات عن مختلف الجرائم وحصرها فاحصاءات الدولة السنوية خير مرجع لمن يريد التدقيق وما أصبحت تصدره مصلحة السجون من تقارير سنوية تشتمل على الكثير من الأبحاث بخاصة ما يحيط بالحدث من نواحى الحياة الاجتماعية مؤيدا بالأرقام الدقيقة والآراء السديدة فاذا ما علمت أيها القارئ الكريم أن مجموع الأحداث المحكوم عليهم فيما بين سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٥ قدروا ١٠٠٥٧ منهم ٢٢٣ بنات زج من هؤلاء بين جدران السجون ما لايقل عن ٤٠٠٠ طفل أو يزيد و ٥٠٠٠ نفذ عليهم الجلد بالعصا هـذا غير من قد حكم عليهم فى هذه

المدة بالوضع باصلاحيات الأحداث . وفى غضون المدة ما بين سنة ١٩٢٨ الى سنة ١٩٣٢ زاد مجموع المحكوم عليهم من الأحداث الى ما قدر ٤٥٦٧٥ من هؤلاء ٦٤٨ بنتا منهم ٢٦٩٦١ أمضوا مدة العقوبة بالسجون العمومية والمركزية من بينهم ٤٥٠ بنتا كما ألحق ٢٣١٨ غلاما منهم ٤ بنات فى اصلاحيات الأحداث ونفذت عقوبة الجلد على ٨٣٩٦ غلاما من بينهم ٤ بنات فقط .

وفى سنة ١٩٣٥ كان عدد المحكوم عليهم بالتأديب الجسمانى والحبس بالسجون والوضع باصلاحيات الأحداث ٩٠٩٠ منهم ١٦٥ بنتا ألحق من هؤلاء باصلاحيات الأحداث ٣٢٨ منهم ٧٣ بنتا والباقون زجوا بالسجون ومنهم من نفذ عليهم عقوبة التأديب الجسمانى بالسجون وفى سنة ١٩٣٦ حكم على ١٩٥٥٠ غلاما ألحق من هؤلاء ٤٥٢ غلاما بالاصلاحيات منهم ٤٨ بنتا والباقون قضوا مدة العقوبة بالسجون العمومية والمركزية ومنهم من نفذ فيهم عقوبة الجلد بالعصا ما بين عصا واحدة الى ٢٤ داخل السجون .

وقد أشار تقرير السجون السنوى الأخير الى أن من بين الاحداث المفرج عنهم بعد تنفيذ التأديب الجسمانى فى السنة القضائية ١٩٣٥ — ١٩٣٦ ما قدر بـ ١٢٤٠٥ غلاما كما عنى بحصر الغلمان الذين كانوا بالسجون فى هذه السنة القضائية وعددهم ١٩٠٢ غلاما تتراوح أسنانهم ما بين سبع وخمس عشرة سنة .

وليس بغريب أن يكون للاحداث الاصلاحيات حظ وفير من التقرير السنوى للسجون إذ أن الرعاية التى يلقاها الاحداث اليوم والعناية التى شهدتها دور الاصلاحيات ما سجله تاريخ لاصلاح لرجل أفاض على هؤلاء بعطفه وأولاهم عنايته وتقديره ولم يفتأ بذكر الطفل السجين نألمع اليه "فى أداء الحكم بالسجن على هذه الناشئة ويحال بينهم و بين مستقبلهم بحكم القضاء الذى هو الفصل بين الماضى و بين المستقبل فأمر فرغ المشرعون من بحثه وأجمعوا على هفواته" نعم أننا نخلق من أطفالنا المهمل مجرمين عتاه إذ أننا لم نفكر بعد فيما دفعهم من أسباب الى ارتكاب الجرائم ولا فى الوقوف على حقيقة العوامل التى كانت ولا تزال تعمل على ارتكابهم الجرائم حيث الجماهير الهادئة .

حقا ان أطفالنا المهمل وصغار المجرمين ومن يسعدهم الحظ فيساق بهم الى الاصلاحيات دون أن نقف منهم على الأسباب الجوهرية والعوامل النفسية والعقلية والصحية وما عداها مما أحاط الأسرة من ضعف شامل لنواحى حياتها الاجتماعية والحق يقال إنها أحوج الى تشريع شامل لنواحى الحياة الاجتماعية ونظم كفيلة برعاية الاحداث وحمايتهم أثناء المحاكمة هذا إلا أننا نغتبط اليوم لحركة الفكرية للاصلاح والتهذيب وما يتجه اليه من تقدير لحرية الطفل ، ويلوح لى أنهم يحاكمون فى جميع قضاياهم بنظام محاكمة المجرم البالغ بعيدا عن نظم

محاكمة الاحداث اليوم فى البلدان الأخرى والتى أصبحت أشبه بهيئة عائلة هذا الطفل المسجين ورفاقه كما قرر عنهم صاحب السعادة مدير السجون فى تقريره السنوى صفحة ٢٣ "فقدو مصادر الحب وموارد المال إما لفقد الأهل والأقربين أو لأنهم أصبحوا مهجورين فصاروا من العوز لدرجة لا يجدون معها حتى ما يسد الرمق أو يستر السوءات هؤلاء هم المعرضون للانزلاق والوقوع فى الجرائم التى من أجلها تفتح أبواب السجون" وقد استرسل سعادته قائلا "لكن اصلاحياتنا اصلاحيات زراعية فى كل حاضرة مديرية وحدة منها تتقبل أبناء المديرية المهمل و المهجورين مما لا محالة سائرون اليه من التعاسة وسوء المصير".

وإلى أولى الأمر فينا وقدة الرأى العام منا تسمع صوت هذا الطفل السجين عاليا إذ ملك عليه السجن مشاعره وانساه طفولته وأفقده حريته وانتزع من بين أضلاعه ذلك الحب الفطرى فأودعه انتقاما وشرا مستطيرا نحو نفسه و بنى عشيرته وانه بما يوضع من نظم تكفل له ولأمثاله حق الرعاية والحماية سواء أكان ذلك أثناء المحاكمة أم القضاء لمدة حكم قد يستعاض عنها بالوضع تحت المراقبة فتصونهم من الانزلاق فى بيئات الجريمة والمجرمين. فمنذ مائة سنة أو يزيد كان الكثيرون من الأطفال فى بلاد الانجليز كغيرها من أمم العالم يزجون فى السجون بين طغمة الاجرام وفوق هذ كان يحكم على الطفل بالاعدام إذ ارتكب بعض الجرائم نعدها فى عصر المدنية اليوم تافهة بحيث يكتفى بوضع مثل هذا الطفل تحت المراقبة Probation System كعلاج له أثره فى حياة "الاصلاح والتهذيب ومقاومة الجريمة بوجه عام ولقد بدا للقوم تدريجا أنهم باغفالهم اصلاح شأن الأطفال لمهمل وصغار المجرمين يخلقونهم مجرمين عتاه فالطفل المشرد اليوم إلا المجرم العتيد ابن الغد وان الشعب الانجليزى ليفخر اليوم بما وصل اليه من وسائل لاصلاح شأن الأحداث لمهمل وصغار المجرمين والوقاية من الجريمة والأطفال يحاكمون فى حجرات خاصة وتتشكل محاكم الاحداث من قاض تعاونه سيدة تجاس معه أثناء المحاكمة كما يتبع هيئة المحكمة سيدة أخرى تؤدى وظيفة ضابط قضائى ومن المقرر أيضا أن رجل البوليس الذى يحضر ليؤدى شهادته على الطفل يحضر بملابس عادية غير رسمية كما يتعين أن يتبع ضباط المراقبة Probation Officers لكل محكمة من محاكم لاحداث فى أنحاء المملكة وفى مقدمة و جباتهم الاشراف على الحدث الصغير فى منزله والسهر على حالته الصحية والخلقية وعطائه الفرصة لاستعادة احترام نفسه كى يندمج عضوا عاملا فى الجماعة.

فتح الله محمد المرصفى